

مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

تحدي العولمة وإشكالية الهوية الثقافية: هل الحوار الثقافي العالمي ممكن اليوم؟

The challenge of globalization and the problem of cultural identity :Is
global cultural dialogue possible today?

¹سفيان فوكة

¹كلية الحقوق والعلوم السياسية جامعة بومرداس (الجزائر)، -s.fouka@univ-

boumerdes.dz

تاريخ النشر: 2020/09/01

تاريخ القبول: 2020/07/22

تاريخ ارسال المقال: 2020/06/17

*المؤلف المرسل: سفيان فوكة، الإيميل: s.fouka@univ-boumerdes.dz

الملخص:

الحديث عن إمكانية التوفيق بين العولمة الثقافية والثقافات المحلية وكون الأمم اليوم أقرب إلى الوصول إلى ثقافة كونية مشتركة يصنعها الجميع بات محل جدل موسع، فحين تسوق العولمة إلى ثقافة الأقويان لا مناص من الإفلات من الغزو الثقافي وما يصنعه من استلاب الأمم عن طريق القوى الاعلامية والاتصالية المحتكرة لمصادر المعلومات والصور التي تشكل أفكارنا والتي تعبر حدودنا دون إذن ودون إمكانية حدها، هكذا باتت العولمة ثقافيا حتمية تفرض نمطا حضاريا صعب المقاومة، في زمنتحتاج الإنسانية فيه إلى الأخذ من الآخر وإعطائه بكل احترام عن طريق حوار الثقافات وما يمنحه من تواصل وتثاقف مكن للعالمية المناقضة للعولمة.

الكلمات المفتاحية: العولمة؛ الثقافة؛ حوار الثقافات؛ التثاقف.

Abstract :

The possibility of reconciling cultural globalization with local cultures and the fact that nations are now closer to achieving a common global culture that everyone creates is the subject of a wide-won debate. Monopolistic of the sources of information and images that shape our thoughts and cross our borders without permission and without the ability to limit them, globalization has thus become a cultural imperative imposing a cultural model difficult to resist, at a time when humanity needs to take from the other and give it with respect through the dialogue of cultures.

Keywords : Globalization; Culture; Dialogue of cultures ; Acculturation

مقدمة:

لا زال هاجس العولمة ومخاطرها يشغلان أذهان النخب الفكرية والسياسية في أرجاء المعمورة، فالحكومات اليوم لا تجد - لاسيما في العالم الثالث - فرصة للإفلات من الغزو الثقافي وما يصنعه من استلاب الأمم عن طريق القوى الاعلامية والاتصالية المحتكرة لمصادر المعلومات والصور التي تشكل أفكارنا والتي تعبر حدودنا دون إذن ودون أن نستطيع حدها، هكذا ومن خلال هيمنة ثقافة الأقوى وإعادة صياغة ثقافة الآخر وفقها بالاستعانة بالاقتصاد والإعلام؛ امكن للغرب الرأسمالي أن يتحدث عن انتهاء عصر الدولة القومية بتلاشي سيادتها⁽¹⁾، وحتمية العولمة كنمط حضاري غير قابل للمقاومة؛ حتى بات البعض ينظر للعولمة على أنها امر واقع لا يمكن انكاره، يشعر المرء إزاءه وكأنه قد تقلص وفقد أهميته بالنسبة لجبروت التحولات التي تجري من حوله.

تطرح خصوصية العلاقة بين العولمة والهوية الثقافية في هذا الإطار، فالاختراق الثقافي الذي تمارسه العولمة لا يقف عند حدود تكريس الاستتباع الحضاري بل يتعداهل تكريس تمييزها لهويات القومية والمحلية بدعوى ان النتائج المشترك لتلاقي الثقافتين هو ثقافة ثالثة، ان الثقافة العالمية التي تريد العولمة فرضها تتحدى الهوية المحلية وتستلزم الاستتباع. في هذا السياق يتوجب طرح الإشكالية التالية: هل التعدد الثقافي العالمي ممكن اليوم في ظل ما تفرضه العولمة ومراكزها من توسع النمط الإنتاجي الرأسمالي الموازي للتطور التقني والاتصالي؟

تقودنا هذه الإشكالية لوضع الأسئلة الفرعية التالية:

- ما المقصود بالعولمة وكيف تسعى انساقها الثقافية للهيمنة على الثقافات المحلية؟
 - كيف كيمن الانتقال من الثقافتين يحملها من خضوع والوصول لحوار الثقافات بما يمنحه من تكافؤ؟
 - كيف يمكن أن تقاوم الثقافات المحلية العولمة التي تسعى الى نمذجة ثقافتها وفرضها على العالم؟
- تستتبع هذه الإشكالية وما يتفرع عنها من أسئلة فرعية طرح الفرضيات التالية:
- تقود العلاقة غير المتكافئة بين مركز العولمة ومحيطها إلى تأثير أمة بقيم أمة أخرى تكون الأقدر على الحركة في هذا الوضع.
 - كلما استبطن الثقافتين علاقة لاتكافؤية بين ثقافة الإنسان المحلي وثقافة الإنسان الكوني كلما اقتربت العولمة الثقافية من كونها أسلوبا جديدا للاستعمار.
 - كلما قل التمسك بالخصوصية المحلية المطلقة والتوافق على القيم العالمية المشتركة كلما تم النجاح في تحقيق الحوار الثقافي بين الأمم.

تظهر أهمية الدراسة بالنظر للتعقيد المستمر الذي ينطوي عليه تعريف العولمة بحكم تضخم ظواهرها المتعددة، وانه لا زال من الضروري الاجتهاد في هذا الباب للتمكن من فهم الظاهرة وتجلياتها المترتبة على تراجع القيود الجغرافية وانعكاساتها على الترتيبات الثقافية والاجتماعية باستمرار، وما رافقها من التطور الهائل لشبكات الإعلام والاتصال وتطور وسائل النقل ساهم بقدر كبير في تطور العلاقات الدولية إلى فوق البعد الوطني وإخراجها من كل مراقبة وسيطرة للدول ما يجعل الثقافات المحلية وخصوصياتها عرضة للاندثار والزوال اما ثقافة الأقوى.

المبحث الأول: العولمة ونزعة الهيمنة الثقافية

لعل العولمة وتجلياتها هي الظاهرة الأكثر جدلا في الفكر المعاصر؛ ذلك انها مست مختلف مناحي الحياة فأثارت اهتمام الباحثين على اختلاف تخصصاتهم ومدارسهم، غير أن محتواها الموضوعي الذي ترمز إليه محتوى قديم؛ حيث كتب الباحثون منذ بداية القرن التاسع عشر عن الفضاء العالمي الواحد المتكوّن بفضل حضارة السوق التبادلية⁽²⁾، بيد أن التعريف الموحد للعولمة غير موجود؛ ومرد ذلك تعدد مستويات التحليل واختلاف الدارسين في اقتراباتهم ومدخلهم التي تعددت بين زوايا الاقتصاد والسياسية والقانون والثقافة والاجتماع⁽³⁾، مما يقتضي مواصلة البحث والتحليل؛ يقول "مارتن آلبرو" (Martin Albrow) في كتابه "العصر العالمي"⁽⁴⁾: "عصر العولمة يستدعي اعتماد نظرية جديدة، وتفكير جديد وأشكال جديدة من الخروج على قواعد علم السياسة، خصوصا إذا كانت القطيعة بين القديم والجديد على تلك الدرجة من العمق..."

ومهما اختلفت الآراء حول العولمة وأبعادها فان الاجماع الحاصل يبرز في كون العولمة تيار زاحف على سائر الامم وفي شتى المجالات، فلئن كانت العولمة قد بدأت من خلال الاقتصاد فإنها تحوّلت سريعاً الى نظام دولي يشمل ايضا السياسة والإعلام والثقافة، ولم يعد بالإمكان الحديث عن العولمة إلا من زاوية أبعادها الجماعية التي باتت كلاً متكاملاً.

المطلب الأول: المعنى اللغوي للعولمة

في اللغة العربية يوجد إشكال في شرح العولمة وهو كامن في البحث عن أصل اشتقاق الكلمة، لأنه لا وجود للفعل "عولم" في الأفعال العربية المعروفة أو المستعملة، ويمكن القول أنها مأخوذة من العالم، فقد يأخذ الدلالة التي جاء بها القرآن الكريم حيث أكد على العالمية بقوله تعالى "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير" (5).

ويرى "أحمد صدقي الدجاني" في إطار التحليل الدلالي للعولمة ومرادفتها الإنجليزية رأيه بقوله: "العولمة هي واحدة من ثلاث كلمات عربية جرى طرحها ترجمة للكلمة الإنجليزية "globalization" والكلمتان الأخريان هما "الكوكبة" و"الكونية" والعولمة في اللسان العربي من "العالم"، ويتصل بها فعل "عولم" على صيغة "فعل" وهي من أبنية الموازين الصرفية العربية، ونلاحظ على دلالة هذه الصيغة أنها تفيد وجود فاعل يفعل، وهذا ما نلاحظه على صيغة "zation" في الإنجليزية على خلاف صيغة "ism" في "Globalisme" التي تعني العالمية (6).

أما في الفكر الغربي فيتحدد معنى العولمة من خلال المصطلح الانجليزي (Globalisation: Global-tion) حيث الشق الأول يعني الشمولية؛ أما الثاني فيعني التجزئة أو الخصوصية، فمن خلال هذا نجد أن المصطلح المزدوج الحركي تبنته الولايات المتحدة الأمريكية بدلالته الاستراتيجية أو بعده الجغرافي الاقتصادي، فالعالم كنسق واحد أشمل وأوسع (7)، كما يمكن سرد المصطلح الفرنسي (Mondial: Mondialisation-tion) حيث يعني الشق الأول العالم أما الشق الثاني فيعني التجزئة أو التفكيك أي الأطراف، هذا المصطلح الفرنسي يركز على النطاق الجغرافي ومعنى الإقليم بما يسمى البعد الفضائي المادي (8)، ومهما يكن يمكن القول أن العولمة تعني تعميم الشيء وتوسيعه ليشمل العالم كله، وتعني هنا تعميم فكر أو أسلوب أو ثقافة أو أنماط سلوكية أو توسيع دائري ليشمل العالم بأسره (9).

المطلب الثاني: مفهوم العولمة الثقافية

من الناحية الاصطلاحية يخضع مفهوم العولمة دوماً وباستمرار إلى إسهامات فكرية عديدة بغية تعريفه وتحديد مضمونه؛ لكن بدون الوصول إلى تعريف شامل وجامع (10)، بحيث ظهر تفاوت في الآراء والمواقف نتيجة المداخل العديدة التي ينظر من خلالها لهذا المفهوم.

يقرّ عالم السياسة الأمريكي "جيمس روزناو" (James Rosenau) بالتعقيد الذي ينطوي عليه تعريف العولمة، ولذا فهو يجد أن من المبكر وضع تعريف كامل ونهائي يلائم التنوع الضخم لهذه الظواهر المتعددة فحتى لو تم تطوير هذا المفهوم، فمن المشكوك أن يتم قبوله واستعماله بشكل واسع (11)، غير أنه من الضروري

الاجتهاد في هذا الباب للتمكن المبدئي من فهم الظاهرة، لقد بادر الباحثون الغربيون للتعامل مع مفهوم العولمة كونها تجد مصادر انبعاثها في النظام الرأسمالي الغربي.

من التعاريف الغربية البارزة نجد "مالكوم ووترز" (Malcolm Waters) والذي يعرفها على أنها: "هي العمليات الاجتماعية التي يترتب عليها تراجع القيود الجغرافية على الترتيبات الثقافية والاجتماعية، ويتزايد في الوقت نفسه إدراك الفرد لذلك التراجع"⁽¹²⁾، بينما يرى الايطالي "انطوني كيدنز" (Anthony Giddens) ان العولمة هي اساس حالة حضارية جديدة هي حالة "ما بعد الحداثة" "Post-Modernism" التي ظهرت في المجتمعات ما بعد الصناعية "Societies Post-Industrialized" وذلك في أقل من عقد واحد فقط⁽¹³⁾، ويعرف "جان جاك روش" (Jean-Jacques roch) العولمة على أنها "مرحلة من مراحل تطور العلاقات الدولية، حيث تجسد تحول البيئة وكذلك تحول طبيعة هذه البيئة التي كانت تحكمها علاقات بين الدول ثم حولتها العولمة إلى علاقات ما فوق وطنية"، ويرجع هذا التحول أساسا إلى اتساع دائرة الإنتاج سواء تعلق الأمر بالشركات الكبرى أو الاقتصادية المختلفة عبر العالم، ويرجع كذلك إلى شدة الترابط الذي أصبح يميز العلاقات المالية والاقتصادية الدولية، كما أن التطور الهائل لشبكات الإعلام والاتصال وتطور وسائل النقل ساهم بقدر كبير في تطور العلاقات الدولية إلى فوق البعد الوطني وإخراجها من كل مراقبة وسيطرة للدول⁽¹⁴⁾.

بينما يرى "سمير أمين" أن العولمة هي امتداد للتوسع الرأسمالي المرتبط بالتراكم، وهو توسع امبريالي استقطابي بين المراكز والأطراف، والجمع عنده بين الامبريالية والتراكم الرأسمالي يتمايز عن النظرة "اللينينية": "الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية"، كما انها نتاج مسيرة تاريخية عرفها العالم منذ قرون ثلاث؛ ظواهرها على التوالي: الاستعمار والامبريالية والعولمة⁽¹⁵⁾، وهي في ابسط تعاريفها: "ستار تكمن الهمجية الرأسمالية وراءه"⁽¹⁶⁾.

ولعله من الصائب في اعتقادنا النظر للعولمة على أنها "التداخل الاقتصادي والسياسي والثقافي الناتج عن ازدياد العلاقات بين الشعوب والأمم كنتيجة لتطور الأفكار والتقنية؛ دون مراعاة الحدود السياسية للدول السيدة ودون الحاجة للإجراءات الحكومية التقليدية، ومن أهم تجلياتها انتقال السلع؛ الخدمات؛ ورؤوس الأموال مما يجعلها - العولمة - توسعا للنمط الإنتاجي الرأسمالي الملازم والموازي للتطور التقني والاتصالي، وهو ما سيؤدي إلى علاقة غير متكافئة؛ تقود إلى تأثر أمة بقيم أمة أخرى تكون الأقدر على الحركة في هذا الوضع".

كما نجد أن العديد من التوجهات ظلت تتراوح بين المطابقة والمخالفة بين "العولمة" و"الأمركة" باعتبار الأولى تجسيد لسيطرة الثانية، هي مرحلة من مراحل التفكير الإنساني في العالم المعاصر، بدأت بالحداثة لتصل للمرحلة الكوكبية ثم تتطلع بعد ذلك إلى مرحلة الكونية⁽¹⁷⁾ وربما تختلف التسمية من عولمة وكوكبة وأمركة إلا أنها في كل الأحيان لا تحمل نفس معنى العالمية، بين العولمة والعالمية بؤن واسع دون أدنى شك.

في هذا السياق تتخذ العولمة سياقاً ثقافياً لها ضمن جملة الانساق التي تتشكل منها، ويُقصد بثقافة العولمة الإطار المعرفي الذي يجعل النظام الرأسمالي مقبولاً من سائر الشعوب، ولا يكون في هذه الحالة في صورة ظاهرة تتمثل في إخضاع عقل هذه الشعوب لتقبل النظام الرأسمالي فحسب؛ بل إعلاناً للتكثيف من قبل مفكرين استراتيجيين

مخططين لوضع دعائم فكر بعينه ييسر تقبل فكرة الانخراط في حركة الرأسمال وسيروته كما يحلو للغرب أن يسيروه⁽¹⁸⁾.

أثير نقاش واسع بين الباحثين بشأن قضية العولمة الثقافية هل هي شكل من أشكال العولمة كغيرها من الأنواع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية والمالية، أم أنها منبثقة عن العولمة الاقتصادية ، وفي هذا الصدد ظهر اتجاه يرى أن العولمة الثقافية من أهم تحديات العولمة⁽¹⁹⁾ وهي شكل أساسي من أشكالها، شأنها شأن العولمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فالعولمة منظومة متكاملة تشمل جميع المجالات من اقتصاد وسياسة وإعلام وثقافة وغيرها ، إلا أن المجال الثقافي هو الهدف من العولمة وما العولمة الاقتصادية والسياسية إلا وسائل للوصول إلى تعميم قيم ومعايير ثقافية لمجتمع قوي علي جميع ثقافات المجتمعات الأخرى ، في هذا الصدد يقول "مايك فيدرستون" (M Featherstone)⁽²⁰⁾ : "التمدد والتداخل الثقافي العالمي يؤدي إلى نشأة كيان عالمي يعرف بأنه نطاق من التفاعل والتبادل الثقافي ،فهو عملية تقوم فيها سلسلة من التدفقات الثقافية لإفراز ثقافة عابرة للقوميات ،يمكن تسميتها بالثقافة الثالثة".

المبحث الثاني: الهوية الثقافية وضرورة الحوار الثقافي

مرد الاهتمام بالثقافة هو الحاجة الدائمة والملحة في البحث عن البعد البشري بالجامع والعنصر الإنساني المشترك كما يراه المفهوم الأنثروبولوجي الذي ينظر للثقافة بالتركيز على هذا العامل الجوهرية الذي يمنح للإنسان التميز عن باقي الخلائق، فالإنسان يسعى باستمرار إلى تكوين المجتمع وتغييره وتطويرة وهنا تقوم الثقافة بهذا الدور عن طريق بناء التوصلات بين الأمم وتجديدها، ولتحقيق ذلك لا بد من تحريك البعد الإنساني المشترك، الذي يقوم على أساسا على الحوار والحوارية التي تميز كل ثقافة، وخارج الانثروبولوجيا يستخدم علماء الاجتماع الثقافة للإشارة إلى طريقة الحياة الكلية لشعب من الشعوب، فثقافة أمة ما تشتمل على كل ما صنعتته وابتدعته من الأفكار والأشياء وطرائق عمل، انها تشتمل الفنون والمعتقدات والأعراف والاختراعات واللغة والتقاليد، ويقابل مصطلح "الثقافة" مصطلح "الحضارة"، غير أن هذا الأخير غالبا ما يشير إلى طرائق الحياة العملية الأكثر تقدما، أما الثقافة فهي أي أسلوب للحياة، بسيطاً كان أم معقداً.

أما الماركسية فترى الثقافة هي "الوعي الاجتماعي الذي يتحدد انطلاقا من نوعية البنية الاقتصادية السائدة في المجتمع... فالحياة المادية هي منيحد الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية؛ وليس وعي الناس هو من يحدد وجودهم بل على العكس فوجودهم الاجتماعي هو من يحدد وعيهم"⁽²¹⁾.

يمكن القول هنا أن الثقافة مجموعة مكونات متطورة ومتغيرة باستمرار، مرنة ونسبية في نفس الوقت بسبب تغير الأحوال والأوضاع والأزمات والعلاقات الداخلية والخارجية، فهي ليست جملة عناصر منغلقة صالحة لكل زمان ومكان ولكل مجتمع وبيئة، كما أنها تشكل مرجعية للتفكير الفردي والعقل الجمعي على السواء⁽²²⁾، فالثقافة هي صورة "تعبير عن هوية الأمة وفلسفتها ونظرتها الكلية إلى الوجود وإلى المعرفة وإلى القيم، أي إلى الله والإنسان والكون والحياة أو إلى المبدأ والمصير والغاية والرسالة"⁽²³⁾.

المطلب الأول: الهوية الثقافية ومسألة الثقافة الثالثة

تشير الدراسات العلمية في حقل العلوم السياسية إلى أن مفهوم الهوية (Identity) تتبلور من خلال سياق تاريخي وسياسي وثقافي خلال أربعينات وخمسينات وستينات القرن الماضي، ومع بداية السبعينات تم اختبار مفاهيم الهوية امبريقيا بصورة سمحت اليوم بإعطاء دلالات تسمح بتوضيح معناها في المجال السياسي العام، ومن ثم نالت اهتمام علماء السياسة حتى صارت مفهوما سياسيا رئيسا.

فضلا عن علم الاجتماع والانثروبولوجيا كثيرا ما تناولت ظاهرة الهوية من قبل الدراسات السياسية رغم ذلك نجد أنفسنا أمام لبس حين تناول الظاهرة بالبحث، وأول مناحي هذا اللبس هو إيجاد مفهوم محدد للهوية والتي هي في حد ذاتها موضوع واسع وشامل، وذلك لتعدد المدارس التي تناولت الموضوع، وكذلك لتشارك عديد العوامل والمتغيرات في صياغة الظاهرة، لا سيما المجتمعية منها والتي تطرأ في حقبة زمنية معينة والتي تشكل طبيعة الوعي البشري في ظرفيه الزماني والمكاني، كما نجد الترميز الاجتماعي للهوية أي عدم اشتراط الانتماء البيولوجي، بل تعبير عقيدتي حسي وشعوري داخلي تختاره الذات الإنسانية تجاه الواقع الطبيعي أو الواقع الاجتماعي، وكل هذا يجعل من الهوية "أكثر المفاهيم الفلسفية ضبابية وفقرا على المستوى الاستيمولوجي، لكنه بالمقابل يتمتع بفاعلية إيديولوجية كبرى"، ووفقا لطبيعة الموضوع وإسقاطاته من الحقل الاجتماعي-الثقافي الى المجال السياسي⁽²⁴⁾ يمكن القول ان الهوية هي الكيفية التي يعرف الناس بها ذواتهم وأمتهم، وتتخذ الثقافة ونسقتها أشكالا لها؛ فهي بذلك تبتعد عن الأحادية وتتخطى منحى تعدديا تكامليا أو منحي تصادمية إذا ما وأسيء فهمها، وتستطيع أن تكون عامل توحيد وتنمية، كما يمكن أن تتحول إلى عامل تفكيك وتمزيق للنسيج الاجتماعي، الذي تؤسسه الهوية الموحدة⁽²⁵⁾.

تؤثر العولمة على تغيير حياة الناس وأذواقهم في أنحاء العالم وتؤثر في ثقافتهم وقيمهم، فنظم الاتصال الجديدة تعني ان الاعلام والكتب والانترنت والأفكار والقيم الدولية يمكن نشرها بطريقة كونية وفورية بالفعل⁽²⁶⁾، ويقود كل هذا الى صياغة ثقافة كونية يصنعها المتحكم الاكبر في رسم الافكار والقيم والمتحكم في سبل نشرها، انها تعني ضمينا وغالبا تأثير صيغ "الليبرالية الثقافية" التي تريد ان تتحول عبر العولمة الثقافية الى تراث انساني عالمي لا تحده حدود جغرافيا معينة!؟

كما ندرك أن مصطلح "العولمة" يطلق على عملية التداخل الثقافي بين أنحاء العالم المختلفة، وما ينتج عن ذلك من تأثير ثقافي وسياسي واقتصادي، إنها نتيجة التطور الهائل في وسائل الاتصال بين المجتمعات والدول وانتقال المؤثرات من بلد إلى آخر بسرعة لم يسبق لها مثيل، فوسائل واليات الاتصالات الحديثة شكلت جملة من العوامل زادت أكثر من أي وقت مضى من تداخل الشعوب والثقافات ببعضها البعض، لكن العولمة لم تؤد إلى تعددية متساوية أو متوازنة في المؤثرات الثقافية، وإنما تعكس الوضع الحضاري العالمي الذي يهيمن فيه النموذج الحضاري الغربي على غيره من النماذج.

وإذا كانت تلك الهيمنة لا تأخذ شكل المواجهة المباشرة - كما كان حال الاستعمار الأوروبي القديم - فإنها تتجسد اليوم من خلال نوع من الزحف الحضاري السلمي وغير المباشر، كانتشار بعض مظاهر الحياة الغربية

وأنماط العيش والاستهلاك أمام هشاشة النظم الثقافية والاقتصادية للدول الأضعف في المواجهة التي لا تعني لحد الآن إلغاء خصائص الأمم ؛ بل مزاحمتها على الأقل بشكل ملفت للانتباه من قبل أنماط الحياة والاستهلاك الغربية، ومن هنا فإن هناك من يرى أن العولمة أدت وتؤدي في كثير من الأحيان إلى هيمنة نموذج حضاري واحد هو النموذج الغربي الأمريكي في المقام الأول.

فكأنما العولمة سياسيا تركز على فكرة نهاية الجغرافيا أو "ارض بلا حدود" وثقافيا تقوم على فكرة "ثقافة بلا حدود"، وما هي علميا إلا نتاج التقدم العلمي والثقافي وعلى الجميع حتمية الانخراط فيها، ولا تملك أية دولة بمفردها قدرة التنكر لها أو تجنبها تحت طائلة التهميش أو الزوال⁽²⁷⁾.

المطلب الثاني: منسبوة الثقافة لتكافؤية الحوار الثقافي

سطت ثقافة الغرب على العالم بشكل متصاعد منذ نهاية الحرب الباردة باعتبارها ثقافة الأقوال المهيمنة بحكم قوته الاقتصادية والتقنية والعسكرية، وقد تمكن هذا الغريم تنميط الثقافات المحلية على شاكلة ثقافته تحت ستار الثقافة، ويقصد بالثقافة (Acculturation) "عملية تتحول فيها السمات الثقافية لإحدى المجموعات عن طريق اتصال شعب بثقافة شعب آخر" ويستخدم المصطلح أحيانا لوصف العملية التي يُلَمُّ الأفراد عن طريقها بثقافة أخرى، ومن الجائز أن يؤدي الثقافة إلى نوع من الخلط، إذا التبس على الشعب التوفيق بين ثقافته الأصلية أو الثقافة التي تزود بها حديثا، لقد وضع هذا المصطلح من قبل علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين العام 1880 واتخذ عدة تفاسير ومفاهيم من طرف جميع الاختصاصات، فعلى سبيل المثال يرى "روجي باستيد" (Roger Bastide) أن هذا التعريف يطلق بدرجة أصح على التنشئة الثقافية (Enculturation) أو الاجتماعية (Socialisation) (28)، كما يشير مفهوم الثقافة أو التلاقح الثقافي (acculturation) إلى اقتباس بعض السمات الثقافية، أو الأنماط الاجتماعية من ثقافة أخرى، وعادة ما يحدث هذا بعد لقاء بين الثقافات المختلفة. ويمكن رؤية آثار الثقافة على مستويات عدة بين الثقافات المتفاعلة، فعلى مستوى الجماعة غالباً ما يؤدي الثقافة إلى تغيرات في الثقافة وما تحمله من العادات والمؤسسات الاجتماعية وغالباً ما تقع التغيرات الملحوظة للثقافة على مستوى الجماعة⁽²⁹⁾.

ان للثقافة منحى سلمي يمكن استعماله للإشارة إلى الأنماط التي يتم بموجبها قبول مظهر ثقافي معين في ثقافة أخرى بحيث يتلاءم ويتكيف معها مما يفترض مساواة ثقافية بين الثقافة التي تعطي وتلك التي تتقبل، والتكيف هو السيورة التي تتحول بموجبها عناصر الثقافة المستعمرة والمسيطر عليها نحو حالة تتلاءم مع شكل الثقافة المسيطرة⁽³⁰⁾، وخلافا للثقافة الذي يستبطن علاقة يشوبها اللاتكافؤ الواضح بين ثقافة الإنسان المحلي وثقافة الإنسان القوي المراهن على فكرة العولمة "كأسلوب جديد للاستعمار"⁽³¹⁾ بينما يسعى الحوار الثقافي في المقابل نحو تمكين التوافق حول قيم مشتركة، فلا جدوى من الحوار إذا ما تمسك كل طرف بخصوصيته المطلقة، كما انه لا طائل منه في حال رغبة أحد الاطراف فرض قيمه تعسفا او احتيالا؛ ويكون الحوار بناء حين تتوافق أطرافه على قيم مشتركة. وهذا غير ممكن إذا كان كل طرف ثقافي ينغلق على ذاته باسم خصوصية مكثفة بذاتها، ويمكن الإشارة الى أربعة نماذج ممكنة للحوار الثقافي⁽³²⁾:

- الانصهار الثقافي (Cultural assimilation): التحلي عن الهوية الثقافية الأصلية وتبني الثقافة المهيمنة.
- التهميش الثقافي (Cultural marginalization): التحلي عن الثقافة الأصلية دون الأخذ من الثقافة المهيمنة.
- الانفصال الثقافي (Cultural separation): التمسك بالهوية الثقافية الأصلية وترك الثقافة المهيمنة.
- الاندماج الثقافي (Cultural integration): التمسك بالثقافة الأصلية والتعامل مع الثقافة المهيمنة.

هكذا يمكن القول أن حوار الثقافات ليس مجرد مناظرة أو مقارنة بين ثقافات في الأفكار والقيم؛ بل هو تفاعل بينها. وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت هذه الثقافات متمكنة من محاوره الآخر وقادرة على فرض حضورها وجدواها، ولا بد للثقافة المحاور أن تسندها قوة اقتصادية وسياسية تعطي لها قوتها وقيمتها التبادلية وهو ما تتمتع به الثقافات الليبرالية اليوم بحكم مكانة اقتصادها من جهة ومنظومتها العلمية والتكنولوجية والاتصالية من جهة أخرى. ولعل أبرز ما تتزود به شعوب العالم من أنماط تفكير وعيش؛ تلك التي تحملها له تكنولوجيا الاتصال الحديثة اليوم، ضمن خطاب متحدث عن التعددية الثقافية في عالم معولم، هذه التعددية الثقافية لا تعني أبدا تساويا بين الثقافات المتعايشة أو المتصارعة، حيث يجمع الكل على انتشار المؤثرات الثقافية الغربية والأمريكية بالدرجة الأولى في ظل ما بات يعرف اليوم بالعولمة الثقافية، فأى معنى للتعيش الثقافي في عالم انتهت فيه الجغرافيا؟

المبحث الثالث: مفارقات الخصوصية والكونية واشكالية التباين بينالثقافة الثالثة والعالمية

تتنامي اليوم توجهات فكرية لب خطابها ينصبُّ حول ضرورة انتقال كل شيء من حظيرة الدولة القومية إلى رحاب الإنسانية الواسعة، فلا تعصب للثقافات المحلية الضيقة أمام الثقافة الإنسانية ولا ضرورة للولاءات الاقتصادية الضيقة أمام الأسواق المفتوحة!⁽³³⁾ عند هذا الحد يمكن القول أن الجدل المرتبط بسيادة الدولة في ظل العولمة يؤدي في كثير من الأحيان للاعتقاد أن السيادة بشكل عام صارت مهجورة وأن الدولة "صارت أقل قدرة على إنجاز وظائفها التقليدية، يعكس هذا الجدل مقولة أن الدولة صارت اصغر على أن تتعامل مع المشكلات الكبرى: الكوارث البيئية الإرهاب...، وأكبر من أن تتعامل مع المشكلات الصغرى بفاعلية.

لا معنى للسيادة بمفهومها التقليدي أمام العولمة الثقافية التي يصعب صدها؛ لقد عرِفنا السيادة سابقا على أنها "السلطة العليا التي لا تعلوها سلطة"⁽³⁴⁾، كما قدمت لنا قواعد القانون الدولي السيادة على أنها ذات بعد داخلي ضمن حدود الدولة تُمارَس على مواطنيها، وآخر خارجي يرتبط بالدول والكيانات الأخرى، فالسيادة الداخلية تعني الهيمنة داخل الاقليم، بينما تفترض السيادة خارجيا منع إمكانية الوقوع تحت سيطرة دولة أخرى، كما أن السيادة الدولية تتضمن أيضا السيادة الداخلية من أجل القدرة على الفاعلية⁽³⁵⁾، ومن الملاحظ أنه كلما حلت العولمة اضطرت السيادة، فهما ضدان متصارعان، لقد اخضعت العولمة مفهوم السيادة التقليدي للمراجعة ومنه لإعادة التعريف، لقد تغير مفهوم السيادة عبر مراحل وذلك كلما اشتدت وطأة العولمة، فمنذ أن كانت السيادة

ذات مفهوم مطلق الى أن صارت ذات مفهوم محدود ونسبي الى أن صار مفهومها يكاد يكون معدوماً ، وهذا المفهوم الاخير للسيادة هو تصور ليبرالي ، في ظل هذه المرحلة يتوقع أن لا يكون هناك انعزال ولا اكتفاء ذاتي ولا ممارسة فعلية حقيقة للسيادة داخليا وخارجيا، وذلك حتى ولو أرادت الدولة ممانعة العولمة ومحاولة عدم الخضوع لها⁽³⁶⁾.

المطلب الاول: الثقافة الثالثة وخطر الغزو الحضاري

يتحدث الغرب عن طريق جديد سماه "الثقافة الثالثة" التي تنتج عن العولمة الثقافية معتبرا إياها "التمدد والتداخل الثقافي العابر للحدود والقوميات المؤدي إلى تشكل كيان عالمي يعرف بأنه نطاق من التفاعل والتبادل الثقافي، حيث تسمح العولمة بخلق عملية تقوم فيها سلسلة من التدفقات الثقافية يسهم فيها الجميع لإفراز ثقافة عابرة للقوميات هي الثقافة الثالثة.

حسب هذا التوجه العولمة الثقافية هي ذلك التداخل والتجانس الثقافي الذي يشده العالم منذ أواخر ثمانينيات القرن العشرين والذي يقود إلى ثقافة يشارك فيها الجميع، بينما الملاحظ والملموس إن العولمة الثقافية أدت إلى بروز نظام أحادي القطبية تعمل فيه الدولة القائدة لهذا النظام على فرض ثقافتها على الكيانات السياسية السائدة، مما يؤدي إلى تحلي هذه القوميات عن ثقافتها وقيمها وهويتها وخصوصياتها، حيث أنها تستبدلها بثقافة المجتمع الأقوى أي بالثقافة الغربية-الأمريكية، وهذا يكون بشكل مخطط ومدرّس، حيث يتم هذا الاندماج في هذا النمط الثقافي عن طريق مراحل هي كالآتي⁽³⁷⁾:

- انتشار ووصول المعلومات بشتى الوسائل وفي وقت وجيز، مستفيدة من ثورة الاتصالات؛
 - تذويب الحدود السياسية منعا لعرقلة التنقل بين الدول، مما يؤدي إلى توحيد الرؤى والأفكار والاتجاهات تجاه القضايا والمستجدات الدولية؛
 - زيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات بسبب التدفق الغزير للمعلومات إضافة إلى إزالة الحدود ليحدث الاندماج في نمط ثقافي مفروض هو النمط الغربي.
- ندرك اليوم ان الحضارة الغربية تنتصر لنمطها الثقافي مستعملة وسائل تكنولوجيا متطورة، كما أن الواقع يؤكد ان التفاوت الحاصل عالميا لا يسمح بتوفير ثقافة ذات طابع كوني بمشاركة مفتوحة لكل الأمم، وإنما يعمل الاقوياء على فرض ثقافات معينة وتصديرها وفق برنامج مدرّس مسبقا⁽³⁸⁾.
- بناء على ما تقدم نجد العولمة الثقافية تنشأ بتضافر عاملين اثنين هما الثورة الحاصلة في تكنولوجيا الاعلام والاتصال والتقاءها مع الرغبة الجارحة في الهيمنة والسيطرة الحضارية من خلال إلغاء الآخر والحلول مكانه، فالعولمة في شقها الثقافي ما هي إلا شكل من أشكال الغزو مادامت تنتشر بآلياتها الثقافية المهيمنة وتعميمها في أرجاء الأرض؛ ساعية لإذابة الثقافات الأخرى في "ثقافة القوة العالمية المهيمنة"، ومما لا غبار فيه إن الثقافة المهيمنة اليوم هي الثقافة الغربية الأمريكية فانه من الجلي إن هذه الثقافة المعولمة تتغلغل إلى باقي المجتمعات عن طريق بثها وضغطها في الفضاء الاتصالي العالمي الذي باتت البشرية مرتبطة به اليوم من قبيل الضرورة دون القدرة على الانفصال، وهو ما يؤدي تدريجيا إلى فقدان الدول الصغيرة خصوصيتها الثقافية تحت ضغط الغزو الثقافي العالمي، ما يحدث

الانقسام والتفكك الداخلي، وظهور التصدعات الثقافية والحضارية وأزمات البحث عن الذات بين الأصالة وما تظنه معاصرة، لتبرز حينها جسور تربوية وتحليلية دورها الرئيس إحداث انتقال قيمي من الثقافة المحلية إلى الثقافة العالمية، ومنه السقوط في مصيدة أو في فخ العولمة الثقافية⁽³⁹⁾.

المطلب الثاني: في مواجهة العولمة؛ العالمية بديلا

العولمة الثقافية هي إشاعة النمط الثقافي والاجتماعي الرأسمالي في الملبس والمأكل هنا يمكن نقدها بالقول أنها "نشر ثقافة فردية معادية تهدف إلى ضرب الروابط الجمعية وقبول الفوارق الاجتماعية والاستسلام للاستغلال، وهي ظاهرة مدعومة دعماً محكماً وكاملاً بالنفوذ السياسي والاقتصادي الذي يمارسه الطرف الأقوى في الساحة الدولية"، أنصار هذا الاتجاه يرون أن العولمة الثقافية هي غزو ثقافي يتم من خلاله نشر الثقافة المهيمنة وتعميمها في مختلف أنحاء العالم، ألا وهي الثقافة الأمريكية. ويتم ذلك عن طريق تزويد ثقافات الدول والشعوب الأخرى في ثقافة القوة المهيمنة⁽⁴⁰⁾، تحت ذريعة بأن ثقافات الدول والشعوب الأخرى هي ثقافات نخبة أو صفوة وثقافات مقيدة، ويكون الغزو الثقافي في جانبه الإعلامي بواسطة وسائل الإعلام والاتصال المختلفة كالبث التلفزيوني عن طريق الأقمار الصناعية وشبكة الانترنت، وأدى ذلك إلى أن أي حدث يقع في أي منطقة من العالم يكون صدها في مختلف أنحاء العالم دون أدنى اعتبار للحدود السياسية للدولة أو لمبدأ سيادتها الإقليمية، فالعولمة اذن "اغتصاب ثقافي وعدوان رمزي على سائر الثقافات، إنها رديف الاختراق الذي يجري بالعنف المسلح بالتقانة ويهدد سيادة الثقافة في سائر المجتمعات التي تبلغها العولمة"⁽⁴¹⁾.

في زمن صار التعارف فيه بين الشعوب والقبائل أمراً بسيطاً وسهلاً بما تمنحه تكنولوجيا الاتصال؛ فإن الإنسانية تحتاج اليوم إلى الأخذ من الآخر وإعطائه بكل احترام؛ إنها العالمية نقيض العولمة، فالعالمية حسب "الجاري" هي الانفتاح على العالم وثقافته المختلفة مع الاحتفاظ بالاختلافات الأيدلوجية، فهي وفقا لهذه الرؤيا تعايش بين الثقافات على اختلافها مع قبول الآخر والتعارف والتحاور معه والتأثير والتأثر المتبادل دون إقصاء وهو جوهر الخلاف مع العولمة التي تريد فرض قيم واحدة على الجميع هي قيم المتفوق أو الأقوى فهي اختراق وتميع لثقافة الآخر⁽⁴²⁾.

الخاتمة:

في نهاية المطاف نصل للقول انه ليس سهلاً اثبات امكانية التوفيق بين العولمة ونمطها الثقافي وباقي الثقافات العالمية الفرعية والمحلية، وأن الامم اليوم ليست أقرب الى الوصول الى ثقافة كونية مشتركة يصنعها الجميع! فمهما كان فانه لا وجود لثقافة نموذجية واحدة ومن المستبعد ان تعرفها البشرية يوماً، بيد انه لا يمكن الانكار انه توجد ثقافات متعددة ومتنوعة تعمل كل منها بصورة تلقائية أو بتدخل إرادي من أهلها قصد الحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصة، فالثقافة الثالثة فكرة تسعى الى تمرير مشروع ثقافي دخیل وما هي الى اداة استلاب وإقناع تعتمد في ذلك على قابلية الانحياز. وانه يتوجب عقلنة الاتصال وتحصين النظام التربوي الموازي لبناء الإنسان الحر ذي الوعي القومي والوعي العالمي دون تنازل عن مقومات الذات والهوية مع الاستناد على فكرة الحفاظ على التراث والثقافة بما يجعلها عناصر فاعلة للمواجهة القومية وصد زحف سلبات العولمة ما دامت تمثل تحدياً حقيقياً للثقافة والهوية الثقافية للأمم، عن طريق انتشار الكثير من المظاهر والقيم التي لا ترتبط بالثقافة والهوية الثقافية المحلية.

الهوامش:

- 1)AbesselamBenzaoui,Les réseaux mondiaux d'influence : entre culture globale et cosmopolitisme, Pensée et sociétés,Alger:Taksidj.com,etudes-editions-distribution ,N7, janvier 2011,p9.
- (2) ألكسندر بانارين، الإغواء بالعملة،(ترجمة: عياد عيد)، منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق، 2005، ص9.
- (3) فضل الله محمد إسماعيل، العملة السياسية وانعكاساتها وكيفية التعامل معها، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999، ص ص9-10.
- (4) فرانك جي تشنر؛ جون بورلي (محررين)، العملة الطوفان أم الإنقاذ؟الجوانب الثقافية والسياسية والاقتصادية، (ترجمة: فضل جتكر)، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2004، ص97.
- (5) سورة الحجرات، الآية 13.
- (6) عثمان حسين هندي، نادية جبر عبد الله، العملة وسيادة الدولة الوطنية، دار الهدى للنشر والتوزيع، الجزائر، ص10.
- (7) حاكم يوحفص، الحكم في عالم يتجه نحو العملة، المجلة، العدد8، 2000، ص ص19-20.
- (8) فتيحة حيمر، العملة واشاعة الفساد، مجلة فكر ومجتمع، الجزائر، عدد 13، 2012، ص ص178-179.
- (9) عبد العزيز سنبل، كيف نواجه العملة، مجلة المعرفة، عدد 08، 1999، ص 18.
- (10) عمر تاكسانة، العملة؛ مفهومها وتأثيرها على العالم العربي، مجلة فكر ومجتمع، طاكسيج.كوم للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، العدد 10، أكتوبر 2011، ص186.
- (11) السيد ياسين، في مفهوم العملة، العملة والعرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998، ص26.
- (12) ثامر كامل الخزرجي، ياسر علي المشهداني، العملة وفجوة الأمن في الوطن العربي، دار المجدلوي للنشر والتوزيع، الأردن، 2004، ص ص21-22.
- (13) عبد الخالق عبد الله، عملة السياسة والعملة السياسية، المستقبل العربي، بيروت، العدد278، أبريل 2002، ص25.
- 14)Rouch Jean Jaque, Relations internationales,3eme edition, Paris: LGDJ,2005,p13.
- (15) سمير أمين (وآخرون)، العملة والنظام الدولي الجديد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2004، ص07.
- (16) سمير أمين، في مواجهة أزمة عصرنا، مؤسسة الانتشار العربي، القاهرة، 1997، ص93.
- (17) فضال الله محمد إسماعيل، العملة السياسية انعكاساتها وكيفية التعامل معها، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1999، ص10.
- (18) السيد أحمد فرج، العملة والإسلام والعرب، دار الوفاء، المنصورة، 2004، ص39.
- (19) محمد غربي، مشروعات تحقيق التنمية المستدامة في العالم العربي الإسلامي في ظل تحديات العملة من خلال المؤتمرات الإسلامية؛ مؤتمر القمة الإسلامية العاشر ببيوتراجايا 2003، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، كلية العلوم السياسية والإعلام، 2006، ص259.
- (20) إبراهيم خليف، العملة الثقافية، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1431، ص20.
- (21) كارل ماركس، إسهام في نقد الاقتصاد السياسي، كتاب الفلسفة، للجنة القومية للفلسفة، تونس، 1976، ص314.
- (22) حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين؛ بحث في تغير الأحوال والعلاقات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000، ص 629.
- (23) يوسف القرضاوي، ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، دار الشروق، القاهرة، 2000، ص19.
- (24) سفيان فوكة، الدولة الوطنية وهندسة الهوية؛ نحو احترام الأقليات وتمكينها، مجلة المعيار، المركز الجامعي تيسمسيلت، المجلد 06، العدد 02، ص208.
- (25) رشيد بلحبيب، الهوية واللغة في المغرب من التعايش إلى التصادم، في كتاب: اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013، صص 247-248.
- (26) بيتر تيلور، كولن فلنت، الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر: الاقتصاد العالمي، الدولة القومية، المحليات، ج1، (ترجمة عبد السلام رضوان، اسحاق عبيد)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2002، ص 20.
- (27) السيد ياسين، في مفهوم العملة، العملة والعرب، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998، ص ص55-57.
- (28) سمير بشة، فيالتشاقفولمثقافة، تاريخالنشر: 2016/03/02، تاريخ الاطلاع: 2020/05/10، رابط المقال:
- <http://samirbecha.com/ar/autour-de-lacculturation/>
- (29) التشاقف، يومية الخليج، تاريخالنشر: 2017/11/18، تاريخ الاطلاع: 2020/05/13، رابط المقال:
- <http://www.alkhaleej.ae/alkhaleej/page/2eebd7fc-082a-4f0c-8a49-1bd409f7b932#sthash.MbiKVrUI.dpuf>
- (30) جيراوكلرك، الأنثروبولوجيا والاستعمار، (ترجمة جورج ككتور)، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1990، ص87.

- 31) المهدي المنجرة، عولمة العولمة، منشورات الزمن، المغرب، العدد 18، سبتمبر 2000، ص 5.
- 32) سمير بشة، مرجع سبق ذكره.
- 33) عبد الأمير الأسعد، العولمة.. مقارنة في التفكير الاقتصادي، في كتاب: سمير أمين (وآخرون)، مرجع سابق الذكر، ص 89.
- 34) عبد الوهاب الكيالي وآخرون، موسوعة السياسة، ج 3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1971، ص 356.
- 35) سمير أمين (وآخرون)، المرجع السابق الذكر، ص 114.
- 36) المرجع نفسه، ص 118.
- 37) خالد خميس السحاني، إرهاب العولمة الممزق تأملات ورؤى فيها وراء العولمة الثقافية، تاريخ النشر 2008/02/09، تاريخ الاطلاع: 2020/05/13، رابط المقال: <https://cutt.us/wK0X1>
- 38) اسماعيل صبري عبد الله، أثر العولمة في حياتنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2006، ص 13.
- 39) محسن أحمد الخضير، العولمة الاجتماعية، مجموعة النيل العربية، القاهرة، 2001، ص 44.
- 40) المرجع نفسه، ص 45.
- 41) اسامة الخولي (محرر)، العرب والعولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998، ص 318.
- 42) محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية؛ عشر أطروحات، في كتاب: اسامة الخولي (محرر)، مرجع سبق ذكره، ص 301.